تطور المذهب الشافعي: المراحل، الأعلام، الخصائص، والأصول

يمثل المذهب الشافعي أحد أبرز المذاهب الفقهية الأربعة، ويتميّز ببنائه المنهجي المتكامل الذي أرسى دعائمه الإمام **محمد بن إدريس الشافعي** (ت 204هـ). وقد مرّ المذهب بمراحل تطورية واضحة، تعاقب فيها جيل التأسيس والرواية، فالتصنيف والتفريع، ثم التحرير والتنقيح، وصولًا إلى الازدهار والاستقرار. وفي هذه المقالة نرصد هذه المراحل، مع بيان خصائص المذهب وأصوله.

أولًا: مراحل تطور المذهب الشافعي

1. مرحلة التأسيس (حتى 204هـ)

أسس الإمام الشافعي مذهبه بعد أن جمع بين مدرستي **الحديث** و**الرأي**، بتأثره بفقهاء مكة والمدينة والعراق، وقد دَوّن مذهبه القديم في العراق، وتلقّاه عنه: **أبو ثور الكلبي**، و**الكرابيسي**، و**الزعفراني**. ثم أعاد النظر في كثير من اجتهاداته عند انتقاله إلى مصر، حيث كتب **مذهبه الجديد** في كتاب *الأم* و*الرسالة*. وتميّزت هذه المرحلة بـ:

- التأصيل المنهجي المباشر على يد الإمام نفسه.
- تدوين الأصول الفقهية لأول مرة في الإسلام، من خلال كتاب *الرسالة*.

2. مرحلة الرواية والانتشار (204–404هـ)

شهدت هذه المرحلة **نقل مؤلفات الشافعي وتثبيتها**، وتخريج الفروع والنوازل على أصوله. من أبرز أعلامها:

- **الربيع بن سليمان المرادي** (ت 270هـ): راوي كتب الشافعي.
- **البويطي** (ت 231هـ): خليفة الشافعي في التدريس.
- **المزني** (ت 264هـ): صاحب *المختصر* المعتمد.
- **القفال الكبير الشاشي** (ت 365هـ): من ناشري المذهب بالعراق.

من كتب المرحلة: *مختصر البويطي*، و*محاسن الشريعة* للقفال الكبير.

3. مرحلة التصنيف والتفريع (404–505هـ)

فيها استقر المذهب وانتشر في الأقطار، وظهرت مدرستان رئيسيتان:

- **مدرسة العراقيين** :ومن أعلامها: الإسفراييني، الطبري، الماوردي.
- **مدرسة الخراسانيين** :ومن أعلامها: القفال الصغير، الجويني.

أبرز مؤلفات المرحلة:

- *الخلافيات* للبيهقي.
- *نهاية المطلب في دراية المذهب* للجويني.
- *الحاوي الكبير* للماوردي.
- *الوسيط* و*البسيط* للغزالي.

4.مرحلة التحرير والتنقيح (505–676هـ)

اتسمت بـ **ضبط المذهب وتحرير مسائله**، ومن أبرز أعلامها:

- **الرافعي** (ت 623هـ): صاحب *الشرح الكبير* و*المحرر*.
- **النووي** (ت 676هـ): صاحب *روضة الطالبين*، و*المجموع شرح المهذب*، و*منهاج الطالبين*.

5.مرحلة الازدهار (676–926هـ)

تميّزت بجمع الروايات، وتخريج الأقوال، وتحرير العبارات. ومن رموزها:

- **زكريا الأنصاري** (ت 926هـ): صاحب *أسنى المطالب*.
- **ابن دقيق العيد** (ت 702هـ): من أعلام التحقيق في المذهب.
- **السبكي** (ت 756هـ): صاحب *جمع الجوامع* و*طبقات الشافعية*.

6.مرحلة الاستقرار (926هـ إلى اليوم)

استقر فيها المذهب على أقوال مرجحة، وظهرت الحواشي والشروح مثل:

- **ابن حجر الهيتمي** (ت 974هـ): صاحب *تحفة المحتاج*.
- **الرملي**، **القليوبي**، **البيجوري** :من الشراح المعتمدين في التدريس.

وقد شهد المذهب انحسارًا جزئيًا بعد أن تبنت **الدولة العثمانية المذهب الحنفي**، إلا أنه بقي واسع الانتشار، خاصة في مصر، اليمن، الحجاز، شرق إفريقيا، وجنوب شرق آسيا.

ثانيًا: خصائص المذهب الشافعي

1. **الجمع بين مدرستي الرأي والحديث**، مع مراعاة ضبط الأصول والاحتكام للنصوص.
2. **وضوح التأصيل** :حيث دوّن الإمام بنفسه قواعد مذهبه وأوليات النظر.
3. **دقة المصطلحات** :وتمييز واضح بين "القديم" و"الجديد"، مع منهج واضح في الترجيح.
4. **توازن بين التعليل والاتباع** :لا يُفتي إلا بما ثبت من النص، أو قياس منضبط على العلة.
5. **صرامة في الرد على الأصول غير المؤيدة بالدليل** :خاصة في رفض الاستحسان وعمل أهل المدينة.

ثالثًا: أصول المذهب الشافعي

يرتكز المذهب على جملة من الأصول المحكمة، مرتبة كما يلي:

1. **القرآن الكريم** :هو المصدر الأول، ويُحتكم إليه ابتداءً.
2. **السنة النبوية** :تُحتج بها على الفور إذا ثبتت، سواء متواترة أو آحاد، بشرط السلامة من التعارض.
3. **الإجماع** :معتبر إن ثبت.
4. **القياس** :شرطه عند الشافعي أن تكون العلة منضبطة ومناسبة.
5. **قول الصحابي** :يُحتج به إن لم يُعرف له مخالف.
6. **الاستصحاب** :يُعمل به عند تعذر النص أو القياس.

وقد رفض الإمام الشافعي **الاستحسان** بشدة، معتبرًا أنه قول بلا دليل، وقال في *الرسالة*:

"الاستحسان تلذذ، ومن استحسن فقد شرّع" (الشافعي، *الرسالة*، ص. 507.(

خاتمة

يمثّل المذهب الشافعي نموذجًا فريدًا في التطور الفقهي المؤسسي، حيث أسّس الإمام قواعده بنفسه، ثم توالت عليه الأجيال تحريرًا وتنقيحًا، حتى غدا **مذهبًا منضبطًا بدقة علمية فائقة** .وقد ظلّ رافدًا أساسًا للفقه الإسلامي في المشارق والمغارب، بحُسن تأصيله، ووضوح مناهجه، وصرامة منطقه، مع سعة في الانتشار وخصوبة في الإنتاج.

المراجع

- الشافعي، محمد بن إدريس .*الرسالة* .تحقيق: أحمد شاكر.
- البيهقي، أحمد بن الحسين .*الخلافيات*.
- الجويني، عبد الملك .*نهاية المطلب في دراية المذهب*.
- النووي، يحيى بن شرف .*المجموع شرح المهذب*.
- الذهبي، شمس الدين .(2001) .*سير أعلام النبلاء* .بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن .(2004) .*المقدمة* .بيروت: دار الفكر.